

وقد بينت لهم الهدى، وأوضحت لهم المنهج، فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أورا إلا عصيانك والقبح بما جئت به من الهدى، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والحق والمطل. ولهذا قال: ﴿قل رب أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾ وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي: لم تكن متحرراً لتزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً. ﴿إلا رحمة من ربك﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فإذا علمت أنه أنزل إليك رحمة منه، [علمت] أن جميع ما أمر به ونهى عنه، فإنه رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ أي: معيماً لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم، أن يقال في شيء منه، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.

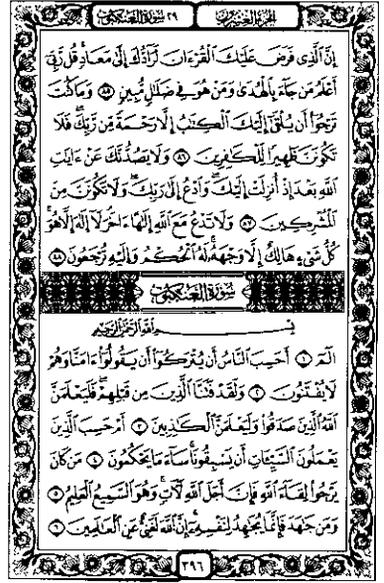
﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يمددك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

﴿وادع إلى ربك﴾ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فارفضه، من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه، التي هي جميع المعاصي.

يغير تعالى عن مضاعفة فضله، وتعام عدله، فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾ شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يجيء بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق^(٢) عباده، ﴿فله خير منها﴾ أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فله عشر أمثالها﴾^(٣).

هذا التضعيف للحسنة، لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه ومحلّه ومكانه، ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه نهياً تحريم. ﴿فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ كقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾.

﴿٨٥ - ٨٨﴾ ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل رب أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾ * وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبيّن فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكام جميع المكلفين، لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيؤون بمعصيتهم.



في كتبه وأخبرت [بها] رسله، التي [قد] جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿نجعلها﴾ داراً وقراراً للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق، ﴿ولا فساداً﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدتهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

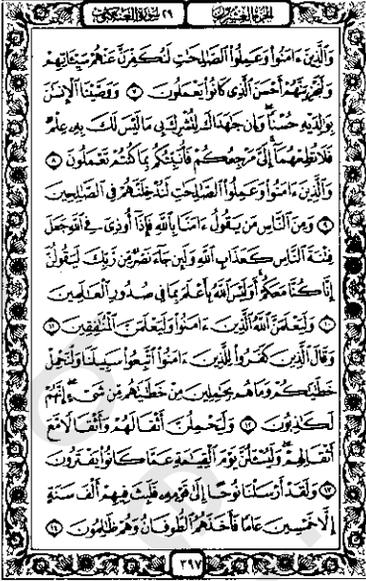
وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿والعاقبة﴾ أي: حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب^(١).

﴿٨٤﴾ ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾

(٣) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: وحقوق العباد.

(١) في ب: حظ.



مستصحباً الرجاء، مؤملاً الوصول إليه، ولكن، ما كل مَنْ يَدْعِي يُعْطَى بدعواه، ولا كل مَنْ تَمَنَّى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فَمَنْ كان صادقاً في ذلك أنه ما يرجو، وَمَنْ كان كاذباً لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه وَمَنْ لا يصلح.

﴿وَمَنْ جَاهِدْ﴾ نفسه وشيطانه، وعدوه الكافر، ﴿فإنما يجاهد لنفسه﴾ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، و الله غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم.

وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد، لأن نفسه تتناقل بطبعها عن الخير، وشيطانه ينهاه عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه، كما ينبغي، وكل هذا معارضة تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد.

﴿٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني أن الذين آمنوا بالله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفر الله عنهم سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، ﴿ولنجزينهم أحسن الذي

والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنه الشهوات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فَمَنْ كان عند ورود الشهوات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها^(١) بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهرته، دَلَّ ذلك على صدق إيمانه وصحته.

وَمَنْ كان عند ورود الشهوات تؤثر في قلبه شكاً وريباً، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدقه عن الواجبات، دَلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات لا يخصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكبر، يخرج خبيثها وطيبها.

﴿٤﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنایات، أن أعمالهم ستهمل، وأن الله سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم، فإنه حكم جائر، لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن للهِم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

﴿٥-٦﴾ ﴿مَنْ كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ وهو السميع العليم﴾ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه،

﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ بل أخلص لله عبادتك، فإنه ﴿لا إله إلا هو﴾ فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد، إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ وإذا كان كل شيء هالكاً مضمحلاً، سواء عبادة الهالك الباطل باطلة ببطلان غايتها، وفساد نهايتها. ﴿له الحكم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿والإله﴾ لا إلى غيره ﴿ترجعون﴾ فإذا كان ما سوى الله باطلاً هالكاً، والله هو الباقي، الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلاق كلهم، يجازيهم بأعمالهم، تعيين على مَنْ له عقل، أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه ويدنيه، ويحذر من سخطه وعقابه، وأن يقدم على ربه غير تائب، ولا مقلع عن خطئه وذنوبه.

تم تفسير سورة القصص

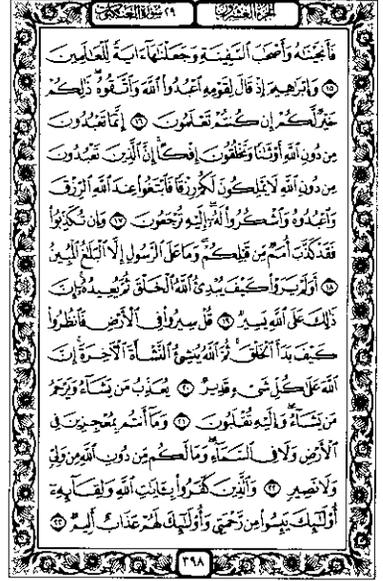
— والله الحمد والثناء

والمجد دائماً أبداً —

تفسير سورة العنكبوت وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿يخبر تعالى عن [تمام] حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل مَنْ قال «إنه مؤمن» وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبتطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول

(١) كذا في ب وفي أ: ويدفعه.



كانوا يعملون ﴿٨﴾ وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل المباحات أيضاً، وغيرها.

﴿٨﴾ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنتبكم بما كنتم تعملون ﴿٩﴾ أي: وأمرنا الإنسان، ووصيناه بوالديه حسناً، أي: ببرهما والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله.

﴿٩﴾ وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم ﴿١٠﴾ وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك، ﴿فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنتبكم بما كنتم تعملون﴾ فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتهم، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿١٠﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴿١١﴾ أي: من آمن بالله وعمل صالحاً، فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان

(١) زيادة من هامش: ب.

الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين * وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بين تعالى أن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله﴾ بضرب، أو أخذ مال، أو تعبير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل، ﴿جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ أي: يجعلها صادةً له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صاّد عمّا هو سببه.

﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾ لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾.

﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ حيث خبركم بهذا الفريق، الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته.

﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ أي: فلذلك قدّر محناً وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرد، لأنهم قد يحتجون على الله، أنهم لو ابتلوا لكتبتوا.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون *

وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك، تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا﴾ فتركوا دينكم أو بعضه واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ولنحمل خطاياكم﴾. وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهدا قال: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ لا قليل ولا كثير. فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه «أن لا تزر وازرة وزر أخرى».

ولما كان قوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ قد يتوهم منه أيضاً، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال: [مخبراً عن هذا الوهم] ﴿وليحملن أثقالهم﴾ أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾ وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرائمهم، فالذنب الذي فعله التابع [لكل من التابع]، والمتبوع حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع [لأنه] تسبب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنه إذا فعلها التابع له أجزاها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب. ﴿وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ من الشر وتزيينه، [وقولهم] ﴿ولنحمل خطاياكم﴾.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأتجنبتنا وأصحاب السفينة وجعلناها آيةً للمؤمنين﴾ يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبة (٣) الأمم الكاذبة،

(٣) في ب: عقوبات.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وقوله.



إليهم وقت موتهم الصغرى - النوم - وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم وماوهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم، حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتهم، قائلين: «الحمد لله الذي أحياناً بعدما أماتنا وإليه النشور». ولهذا قال: **﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾** بعد الإعادة **﴿يُنشِئُ النُّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾** وهي النشأة التي لا تقبل موتاً ولا نوماً، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين. **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** فقدرته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائنين ورحمتهم، وتعذيب العصاة والتنكيل بهم. **﴿وإليه تقلبون﴾** أي: ترجعون إلى الدار، التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكتموا في هذه الدار، ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه، وهي المعاصي.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي: يا هؤلاء المكذبون، المتجرؤون على المعاصي،

بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شرمجاجة.

﴿قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار **﴿فأنجاه الله﴾** منها

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فيعلمون صحة ما جاء به الرسل، ويرهقهم ونصحهم، وبطلان قول من خالفهم وناقضهم، وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصوا وحث بعضهم بعضاً على الكذب.

﴿وقال﴾ لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه: **﴿إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾** أي: غاية ذلك، مودة في الدنيا ستنتقطع وتضمحل، **﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾** أي: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر **﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾** فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه يتبرأ من عابديه ويلعنهم؟ **﴿و﴾** أن ماوى الجميع، العابدين والمعبودين **﴿النار﴾** وليس أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ **﴿فأمن له لوط وقال﴾** إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم * وهيناله إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذرية النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين **﴿أي﴾** لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه، وهم مستمرون على عنادهم، إلا أنه آمن له بدعوته لوط، الذي نبأه الله، وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره.

﴿وقال﴾ إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: **﴿إني مهاجر إلى ربي﴾** أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة، وهي الشام، **﴿إنه هو العزيز﴾** أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم ما اقتضت حكمته ذلك، ولما اعتزلهم وفارقهم، وهم بحالهم، لم

لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فلستم بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ يتولاكم، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم، **﴿ولا نصير﴾** ينصركم، فيدفع عنكم المكروه.

﴿٢٣﴾ **﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾** يغير تعالى مَنْ هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاؤهم به، وكذبوا بقاءه الله، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي، لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال تعالى: **﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾** أي: فلذلك لم يعملوا سبباً واحداً يحصلون به الرحمة، وإلا لو طعموا في رحمته، لعملوا لذلك أعمالاً، والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان:

إياس الكفار منها، وتركهم جميع سبب يقربهم منها، وإياس العصاة، بسبب كثرة جناباتهم وأوحشتهم، فملك قلوبهم، فأحدث لها الإياس، **﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾** أي: مؤلم موجه. وكان هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم عليه السلام لقومه، وردهم عليه، والله أعلم بذلك.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ **﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾** فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً وماوكم النار وما لكم من ناصرين **﴿أي﴾** فما كان مجاوبه قوم إبراهيم إبراهيم حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته، والاهتداء بنصحه، ورؤية نعمة الله عليهم

قومه، فقالوا له: ﴿لا تخف ولا تحزن﴾ وأخبروه أنهم رسل الله. ﴿إننا منجوك وأهلك إلا أمرتك كانت من الغابرين﴾ إذا منزلون على أهل هذه القرية رجلاً أي: عذاباً ﴿من السماء بما كانوا يفسقون﴾ فأمره أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا، قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى آبادتهم وأهلكتهم، فصاروا سَمَرًا من الأسمار، وعبرة من العبر، ﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون﴾ أي: تركنا من ديار قوم لوط، آثاراً بيّنة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم، ﴿فيستفهمون بها﴾ كما قال تعالى: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ وبالليل أفلا تعقلون؟

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعبياً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعسوا في الأرض مفسدين﴾ فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شعبياً﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ببخس المكاييل والموازين، والسعي بقطع الطرق، فكذبوه فأخذهم عذاب الله ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين﴾ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمتم قصصهم، وتبين لكم بشيء

ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴿قال رب انصربي على القوم المفسدين﴾ إلى آخر القصة. تقدم أن لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم، وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم.

فقوله تعالى: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ وإن كان عاماً، فلا يناقض كون لوط نبياً رسولاً وهو ليس من ذريته، لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخير أن لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه أكمل من اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي، والله أعلم.

فأرسل الله لوطاً إلى قومه، وكانوا مع شركهم، قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطيع السبيل، وفشو المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قبائحها في نفسها، وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يرعوا ولم يذكروا. ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾

فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم و ﴿قال رب انصربي على القوم المفسدين﴾ فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل، وبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إن فيها لوطاً﴾ فقالوا له: ﴿لننجينه وأهله إلا أمرته كانت من الغابرين﴾ ثم مضوا حتى أتوا لوطاً، فسأه بجيئهم، وضاق بهم ذرعاً، بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من

يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم، وهجرته من بين أظهرهم.

فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن لعل من أسرار ذلك، أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم [وأحلمهم] وأجلهم، فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجري بسببه عذاباً عاماً.

وما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه، والله أعلم بالحال.

﴿وهيئنا له إسحاق ويعقوب﴾ أي: بعدما هاجر إلى الشام ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

وهذا [من] أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون. ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد، الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه.

﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلام منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿٢٨ - ٣٥﴾ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ أئتنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في

تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم.

﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل، وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران، بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض، [على عباد الله فأذلوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة] ﴿وما كانوا سابقين﴾ الله، ولا فاتنين، بل سلّموا واستسلموا.

﴿فكلاً﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة أخذنا بذنبيه على قدره، ويعقوبة مناسبة له، ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي: عذاباً يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾.

﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ كقوم صالح، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ كقارون، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما.

﴿وما كان الله﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق. ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ منعوها حقها التي هي بصدده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، ففرضوها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم ينعفونها.

﴿٤١-٤٣﴾ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴿ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتقوّي والنفع، وأن

الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتاً يقيها من الحر والبرد والآفات، ﴿وإن أوهن البيوت﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لبيت العنكبوت﴾. فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت بانحاذه إلا ضعفاً، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم، ووهناً إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل.

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرؤوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه، كفاه مؤونة دينه ودينه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله.

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين، ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها، وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق، يتبين للعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئاً موجوداً، ولا إلهاً له حقيقة، كقوله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ وقوله: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي له القوة جميعاً، التي قهر بها جميع المخلوقات، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كل

شيء خلقه، وأتقن ما أمره.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس.

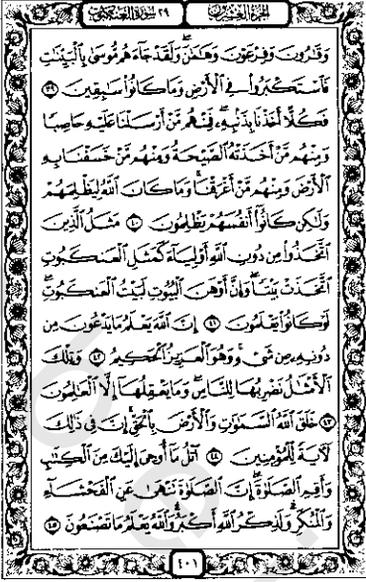
﴿و﴾ لكن ﴿ما يعقلها﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿إلا العالمون﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجلية، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لا اعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبدلون جهدهم في معرفتها.

وأما من لم يعقلها، مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى. ولهذا، أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

﴿٤٤﴾ ﴿خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي: هو تعالى المنفرد بخلق السماوات، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق، أي: لم يخلقها عبثاً ولا سدى، ولا لغير فائدة، وإنما خلقها، ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره، ما يدلهم على أنه وحده معبودهم ومحبوبهم وإلههم. ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ على كثير من



مناظرة أهل الكتاب، على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب، وتقررت عند المناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ، قد بينتها ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسول كلهم، وهذا من خصائص الإسلام.

فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني، دون الكتاب الفلاني وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب، لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

وأيضاً، فإن كل طريق تثبت به (٣) نبوة أي: نبي كان، فإن مثلها وأعظم منها، دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يقترح بها في نبوة محمد ﷺ، فإن مثلها أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره، فثبت بطلانها في حقه ﷺ. أظهر وأظهر.

وقوله: «ونحن له مسلمون» أي: متقادون مستسلمون لأمره. ومن آمن

الصلاة أكبر من الصلاة، كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر.

«والله يعلم ما تصنعون» من خير وشر، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي أحسن» أي: الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع.

«وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد» أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم [على وجه] يحصل به (١) القدر في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدر بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً. وأيضاً، فإن بناء

المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً.

«اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون» يأمر تعالى بتلاوة وحبه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته اتباعه، بامتثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله، داخلة في تلاوة الكتاب. فيكون قوله: «وأقم الصلاة» من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرورها، وأثارها الجميلة، وهي «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر».

والفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتتها النفوس. والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر.

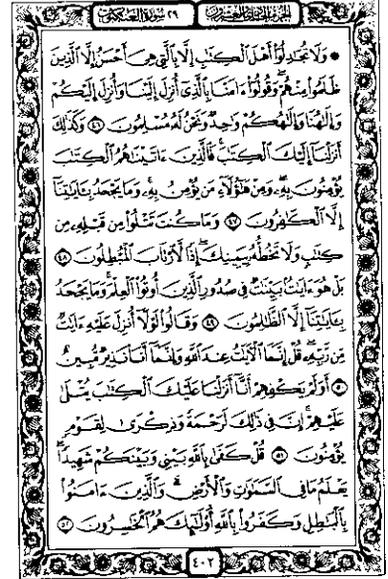
ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستتير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق (١) لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: «ولذكر الله أكبر».

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج

(١) في ب: العباد.

(٢) في أ: بها.

(٣) وفي ب: بها.



به، واتخذها إلهاً، وأمن بجميع كتبه ورسله، وانقاد لله واتبع رسله، فهو السعيد، ومَن انحرف عن هذا الطريق، فهو الشقي.

﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب الميطلون ﴿٤٧﴾ أي: ﴿وكذلك أنزلنا إليك﴾ يا محمد، هذا ﴿الكتاب﴾ الكريم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون.

﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ فعرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى. ﴿يؤمنون به﴾ لأنهم تيقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبح، والصدق والكذب.

﴿ومن هؤلاء﴾ الموجودين ﴿مَن يؤمن به﴾ إيماناً على بصيرة، لا عن رغبته ولا رهبة. ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعدا له. وهذا حصر لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق،

والإ، فكل مَن له قصد صحيح، فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكل مَن له عقل، أولقى السمع وهو شهيد.

وبما يدل على صحته، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، ولا يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال، من أظهر البينات القاطعة، التي لا تقبل الارتياب، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: ﴿وما كنت تتلو﴾ أي: تقرأ ﴿من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا﴾ لو كنت بهذه الحال ﴿لارتاب الميطلون﴾

فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك، كتاباً جليلاً، تحدت به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء، أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثهم أنفسهم بالمعارضة، لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر، لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿٤٩﴾ ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾.

أي: ﴿بل﴾ هذا القرآن ﴿آيات بينات﴾ لا خفيات، ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكامل منهم.

فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقصد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿وقالوا لولا أنزل

عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها، كقولهم: ﴿وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات. فتعيين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذلك، وينبغي^(١) أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمر شيء. ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود - بأي طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلماً وجوراً، وتكبراً على الله وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها، كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فأمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.

فأي: فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الغرضي؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعال طريقه، فقال: ﴿أولم يكفهم﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات السبب، والسدالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرد وهو أمي، من أكبر الآيات على صدقه.

(١) كذا في ب، وفي أ: وبني.

على مقصودهم، فأهانهم^(٧) الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يمتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي، فإن أمامهم العذاب الآخروي، الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل يعذاب الدنيا أو أمهل.

﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد.

﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿٥٦ - ٥٩﴾ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فيإياي فاعبدون * كل نفس ذائقة الموت ثم إلینا ترجعون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدین فیها نعم أجر العاملین * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ يقول تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾ بي وصدقوا رسولي ﴿إن أرضي واسعة فيإياي فاعبدون﴾ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها، واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإتزاله الغرف العالية، والمنازل الأنيقة الجامعة لما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون.

فلتكفیکم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعه ولم تروه - لا تكفي دليلاً، فإنه ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾. ومن جملة معلوماته حالي وحالكم، ومقالي لكم^(٥) فلو كنت متقولاً عليه، مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبتي، لكان [قدحاً في علمه وقدرته وحكمته] كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين﴾.

﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ حيث هم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟

يقول تعالى: ﴿ولولا أجل مسمى مضروب لنزوله، ولم يأت بعد، لجاءهم العذاب﴾ بسبب تعجزهم لنا وتكذيبهم الحق، فلو أخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع لبلاتهم وعقوبتهم، ولكن - مع ذلك - فلا يستطيعون^(٦) نزوله، فإنه سيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لـ «بدر» بطرين مفاخرين، ظانين أنهم قادرون

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم^(١)، آية أخرى، ثم ظهوره، وبيروزه جهراً علانية، يتل عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يشن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟.

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين^(٢)، والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل «ليته لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل: «ليته لم ينه عنه»، بل هو مطابق للعقل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول ثم مسابرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به^(٣).

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له^(٤)، فلذلك قال: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ فإنا قد استشهدته، فإن كنت كاذباً، أحل بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصرني ويسر لي الأمور،

(٧) في النسختين: فأهانهم، ولعلها كما أثبت والله أعلم.

(٤) في ب: فإنه رحمة له وخير.

(٥) كذا في ب، وفي أ: ومقالكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يستعجلون.

(١) في ب: وتحديهم إياه.

(٢) في ب: السابقين.

(٣) زيادة من هامش: ب.

الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه اليس في جهنم مشوقاً للكافرين * والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين * يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التزهيد في الدنيا والتشويق للآخرة، فقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾ في الحقيقة ﴿إلا لهو ولعب﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الرزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس الباطلة الباطلة، ثم نزول سريعاً، وتنقضي جميعاً، ولم يحصل منها عجبها إلا على الندم والخسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة، فإنها دار ﴿الحيوان﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المأكّل، والمشارب، والمناجح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾ لما أتروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعلمون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حاله^(١) الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون إذا أمدادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى^(٢) من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال^(٣) عنهم مشقة.

فهلاً أخلصوا لله الدعاء في حال

موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من خلق السماوات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿ليقولن الله﴾ وحده، ولأعترفوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك.

فأعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً، وسجل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلاً، وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموقنون.

وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم.

﴿٦٤ - ٦٩﴾ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون * أولم يروا أننا جعلنا حراماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أقبالاً باطلين يؤمنون وبنعمة الله يكفرون * ومن أظلم ممن افترى على

ذ ﴿نعم﴾ تلك المنازل، في جنات النعيم ﴿أجر العاملين﴾ لله، ﴿الذين صبروا﴾ على عبادة الله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في ذلك. فصرهم على عبادة الله، يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك.

وتوكلهم، يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل، وإن كان داخلياً في الصبر، لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأموره، ولا يتم إلا به.

﴿٦٠﴾ ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ أي: الباري تبارك وتعالى، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قويم وعاجزهم، فكم ﴿من دابة﴾ في الأرض، ضعيفة القوى، ضعيفة العقل. ﴿لا تحمل رزقها﴾ ولا تدخره، بل لم تزل، لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق، في كل وقت بوقته.

﴿الله يرزقها وإياكم﴾ فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم، ﴿وهو السميع العليم﴾ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه.

كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ * الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم * ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد

(٣) كذا في ب، وفي أ: زال.

(٢) كذا في ب، وفي أ: نجاهم.

(١) في ب: حال.



فظهر الفرس على الروم، فغلبوهم غلباً لم يحط بملكهم، بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم ^(١) أن الروم ستغلب الفرس.

﴿في بضع سنين﴾ تسع، أو ثمان، ونحو ذلك، مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم، ثم غلبة الروم للفرس، كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿الله الأمر من قبل ومن بعد﴾ فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿ويومئذ﴾ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهروهم ﴿يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء﴾ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفاراً، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء. ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين، حيث قبيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم، ما

والنصر والهداية. دل هذا، على أن أخرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت بحمد الله وعونه

تفسير سورة الرُّوم وهي مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال، ما يكون بين الدول المتوازنة.

وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهرهم على الفرس، وكان المشركون - لاشتراكهم والفرس في الشرك - يحبون ظهور الفرس على الروم.

الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه.

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، ليكون عاقبته كفر ما أتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا نعمتهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم.

﴿فسوف يعلمون﴾ حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة، شدة الأسف وأليم العقوبة.

ثم امتنّ عليهم بحرمه الآمن، وأتهم أهله في أمن وسعة ورزق، والناس من حولهم يتسخطقون ويخافون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف.

﴿أفالباطل يؤمنون﴾ وهو ما هم عليه من الشرك، والأقوال، والأفعال الباطلة. ﴿وبنعمه الله﴾ هم ﴿يكفرون﴾ فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث أتروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلم الخلق.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله، ﴿أو كذب بالحق لما جاءه﴾ على يد رسوله محمد ﷺ.

ولكن هذا الظالم العنيد، أمامه جهنم ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ يؤخذ بها منهم الحق، ويحزون بها، وتكون منزلهم الدائم، الذين لا يخرجون منه.

﴿والذين جاهدوا فينا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته، ﴿لنهديهم سبلنا﴾ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون.

﴿وإن الله مع المحسنين﴾ بالعون

ويحلوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها بالإيمان وبنيت عليه لأنثرت الرقي العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير، منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير^(٦)].

﴿٨ - ١٠﴾ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون * أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم كان عاقبة الذين أسأوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن ﴿١٠﴾ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿في أنفسهم﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون^(٧) بها، أن الذي أوجدتهم من العدم، سعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سدى مهملين، لا يتهون ولا يؤمرون، ولا يشاؤون ولا يعاقبون.

﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [أي] ليبلوكم أيكم أحسن عملاً. ﴿وأجل مسمى﴾ أي: مؤقت بقاؤها إلى أجل تنقضي به الدنيا، ونجى به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

﴿وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون﴾ فلذلك لم يستعدوا للقائه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة، قد دللت على البعث والجزاء،

أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية^(٨) والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك، أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رأهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون^(٩). نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم^(١٠) نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، [وما] حرموا من العقل العالي، فعرفوا^(١١) أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه وحذلانه، فخافوا^(١٢) ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم، من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه،



لا يدخل في الحساب.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات، التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة ستين عينوها، فلما جاء الأجل، الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ فينظرون إلى الأسباب، ويميزون بوقوع الأمر الذي في رأيهم اعتقدت

(٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف.

(٨) في ب: عدلت إلى: تعرفوا.

(٩) في ب: عدلت إلى ولخافوا.

(١٠) زيادة من هامش ب، لم يتضح أولها وقد نقلته من طبعة السلفية.

(١) كذا في ب، وفي أ: النارية.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يترددون.

(٣) هكذا في النسختين، وقد شطبت الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو).